

## الفصل الأول

بدء الرحلة . كونت لبله . جبل طارق

فادس . ساحل الغرب . جزائر

البيار . العاصفة

جنوة

فردنا القلاع وغادرنا ميناء « سان لوكار دي براميدا » ، وكان سفرى فى سفينة من سفن غاليسيا لأننى كنت قد أعددت عدة الرحيل دون أن يكون لدى شىء من الجياد أو سواها من الوسائل الضرورية للسفر براً ، وظلنا مبحرين طوال يومنا هذا واليلة التى تلتها ، حتى إذا عطفنا على رأس الطرف الأغر دخلنا المضيق ، وبلغنا — مع انبلاج ضوء النهار — جبل « كارنيرو » عند مدخل جبل طارق ، وأرسينا على مقربة من البلد ، وطالعنا عدداً كبيراً من سفن الملك ، وغراباً من أغربته جاءت صحبة كونت لبله<sup>(1)</sup> الذى وجدناه قد أرسى على مسافة نصف فرسخ من جبل طارق ، بصحبته ألف ومائتا فارس وخمسة آلاف من المشاة وبرفته ابنه أيضاً ، وإذ ذاك غادرت السفينة ومضيتُ قُدماً لمقابلة الكونت الذى سرّه لقائى ، واستبدّ به العجب كيف تمكنتُ من القدوم رغم ما كنت أعانيه من مرض ألمّ بى حديثاً ، ثم أخذ فى مشاورة فرسانه مُفضياً إليهم بسبب وجوده هناك ، وكان قد أبقى هذا الخبر مكتوماً عنهم حتى اللحظة ، وكان الأمر كما يلى : لقد أنبأه بعضهم أنه لا يوجد فى جبل طارق عشرة من المسلمين المقاتلين ، على حين أن ألفاً من الرجال قلّ أن يكفوا

للدفاع عن حصنٍ عظيمٍ مثل هذا الحصن الذي لن يلبث أن يقع في يديه إن هوباغته بالهجوم . لذلك رسم أن يتجمع فرسانه عند المدخل الواقع على اليابسة ؛ أما هو فيكرّ بمن معه من المدججين بالسلاح كرّة خاطفة على تلك الناحية من الجبل المتاخمة للرفأ ، حيث دخل الملك ألقونسو .

ورسم الكونت أيضاً لابنه « دون خوان » أن يزحف عن طريق البحر على برج « تور تو » القائم على الجبل ، وفي هذه الأثناء يكون الباسكيون قد مضوا قُدماً في سفنهم وغراهم لمهاجمة حصن « كازال دى جينوفيز » الواقع على أعلى قمة هذا الجبل .

على هذا النمط رتب الكونت كل شيء ، فلما كان اليوم التالي انطلق كل فريق — بعد فراغه من القداس — إلى الناحية التي اتفق على وقوفه بها ، ثم خرجنا نحن بعدئذ واقتربنا من البلد ، حتى إذا بلغ الجزر مداه غادرنا السفن وتحركنا شطر السور ، بيد أننا لم نصطحب معنا في ذلك اليوم مدفيعتنا ، إذ لم يكن هَمُّنا يومذاك إلا استطلاع عدد القائمين بالدفاع عن هذا المكان . لكننا لم نكد نصاب السور حتى لقي خمسة عشر رجلاً أو عشرون من رجالنا مصرعهم ، واضطربنا اضطراباً لم نلقِ معه بالاً إلى أن المدا أخذ في الارتفاع حتى أصبحنا نخوض في المياه إلى ركبنا . ولما رأى الكونت عجزنا عن القيام بشيء ما — إلى جانب أننا لم نجلب معنا مدفيعتنا — فقد أصدر أمره بأن نعود على أعقابنا إلى البحر ، فارتد الرجال إلى القوارب ، بينما تحلف الكونت لجمع الآخرين ، وبينما هو يتأهب لاوثوب في القارب الأخير هو وعشرة أو اثنا عشر فارساً ممن ظلوا معه على الشاطئ أدرك العدو أن لم تبق غير شزيمة قليلين ، وقد انسحب الآخرون دون إصدار أوامر بتغطية هذا الانسحاب بالسهام والمدافع ، وعرف العدو أن الجميع قد ركبوا البحر حين أوشك القارب

الأخير على الرحيل ، وإذ ذلك قامت جماعة من فرسان المسلمين يبلغون العشرين وطائفة كبيرة من مشاتهم وحملوا على القارب — وكان صغيراً قد أثقلته حمولته فانقلب بمن فيه ، وابتلع اليم الكونت ومن معه ؛ حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه التداوير الأخرى قائمة على قدم وساق ، ونهض بقية الرجال بأكثر مما يستطيعون من الأعمال ، ولم يُسْمَعَنَّ من ذلك سوى من على الشاطئ من الفرسان الذين لم يجدوا سِمْ من يقاتلونه فلم نَرَّ من العودة بدأ ، وانكفأنا راجعين يرمضنا الحزن لفقدنا هذا القائد المحنك في البر والبحر على السواء ، واثبتينا قافلين إلى قشتالة ، ومنها إلى « سان لوكار » التي كان إقلاعنا عنها من قبل .

\* \* \*

وجبل طارق قلعة بلغت من المناعة منتهاها ، وخبرها ذائع في شتى ربوع الدنيا ، وهو يقوم عند دم المضييق ، حيث يلتقى المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط ، وأرضه شديدة الخصب ، أما المدينة فتشرف على المدخل المؤدى إلى الأرض الرئيسية الشديدة الضيق والتي تمتد من هناك إلى قمة الصخرة مسافة تقرب من فرسخ ، وهي حصينة التسوير حافلة بالبساتين والكروم والمياه العذبة ، وتجتّم في بقعة شديدة الانخفاض واقعة على سيف البحر ، ونهض خلفها الصخرة التي تضرب بقتها إلى العنان ، حتى ليحسب رائبها أنها تمس السماء ثم تنتصب معتدلة ، وعلى الرغم من مظهرها القوي من ناحية الغرب إلا أنها تبدو من الشرق أكثر صلاحية ، ومرفوها أمين كل الأمان ، وهو عبارة عن لسان من البحر يدخل في اليابسة حتى يبلغ أرض الجزيرة الخضراء ، ويمتد مسافة ثلاثة فراسخ صالحة كلها لرسو السفن .

غادرنا هذا المكان ، وركبنا المضيق ونحن نشاهد رأس طريف ، ومررنا بميناء قادس وسواه من الأماكن الواقعة على الساحل ، ثم بوخنا ميناء « براميدا » عند سان لوكار ، حيث تلقانا من بها بقلوب أقل انشراحا عما كانت عليه حين رحيلنا عنهما من قبل ، فجمعت ما كنت قد جهزته ، وامتطيت ظهر مركب كبير يملكه « خيرونيمو دى فولتاخو » الذى كان قد قدم من جنوة بسفينتين أخريين تابعتين « لاستبان دوريا » و « خيرونيمو دوريا » ، وعليهما جماعة من الجنود للدفاع عنهما ضد القطلونيين ، كما أبحر عليهما معظم الجفوية الذين كانوا فى أشبيلية لما كانوا يحملونه من الأموال الضخمة .

\* \* \*

خلقنا ورامنا ميناء قادس ، وبلغنا ساحل إفريقية وقد أدركنا مدينة سعى « أصيلة » ، حيث كان علينا أن نفرغ شحناتنا بها ونأخذ أخرى جديدة مكانها ، وهذه البلدة ملاصقة لرأس « اسبارتيل » وتابعة للملك فاس ، ومن ثم كان عليها وال من قبيلة وهو فارس بربرى اسمه « مصالة ابن مصالة » .

وأصيلة مدينة وافرّة الحصوبة ، غير أنها تزخر بالحيوانات والطيور أكثر من أى شيء آخر ، فأقنا بها ثلاثة أيام ، ثم أقلعنا منها ودخلنا مضيق جبل طارق ، فلما حانت ساعة صلاة الغروب أبصرنا فى الظلام سفينتين كبيرتين حسيبناهما من سفن القطلونيين ، فعدنا أدراجنا إلى الورا وأرسينا بعيداً عن طنجة ، بيد أن السفينتين مضيتا فى طريقهما إلى قادس ، فلما كان اليوم التالى تابعنا الرحلة وبلغنا « سبتة » حيث علمنا من أحد القوارب

الباسكية أن هذين المركبين من صراكب الأسطول الجنوى ، وأنهما جاءا من جنوة لمصاحبة سفننا الثلاث ، فأرسينا في سبعة وغادرنا السفن وطلبنا قارباً صغيراً ذا شراع واحد ، وأنفذنا الرسائل إلى قادم طالبين أن تنتظرونا بها الشوانى وإلاً فلثلاثنا في مألقة حيث كان علينا أن نفرغ بها حملتنا ونزود فيها من جديد .

\* \* \*

وبقينا ذلك اليوم في سبعة ، وخرجت لتفقد المدينة ومشاهدة ضواحيها التي بدت لى أجل ما تكون منظرأ ، ودات على أنها بلد كبير ، وليس من شك فى أن لو استولى عليها ملك<sup>(٧)</sup> قشتالة وزينها للناظرين لأضحت بسبب موقعها أعظم بلاد العالم فتنة .

وأرضها على وجه العموم خصبة رغم وعورتها ، والإقليم جبلى ، غير أنه توجد به ميناء صالحة وأرض فسيحة ، وفاكهة وفيرة ، ومياه غزيرة ، وأما ما سوى ذلك من المدينة فقد بلغ من القوة مبلغاً عظيماً ، إذ يوجد على أحد جانبي الجبل مكان صخرى يحوطه سور يسمونه « الالنيان » ، لا بد وأن يبلغ من العظم غاية لو قدر له ما كان ينبغى أن يكونه .

وتعج جبال سبعة هذه بالأسود التي يبلغ عددها هنا أكثر منه فى أى مكان آخر بالعالم ، وبمعجز المدعن لإحصاء ما بها من التنافذ والقروء والفهود والديبة والخنازير ، ويقال إنه يُشك فيما إذا كان يوجد ثم مكان آخر على الجانب الإفريقي أعظم من هذا المكان ارتفاعاً وأكثر جبلاً ، ويقال إن سبب ذلك قربه من الغرب ووقوعه على هذا الجانب من المضيق .

ورحلنا عن سبته مخلفين إفريقية على يميننا وأوربة على يسارنا ، وأبحرنا في المضيق ، حتى أرسينا على ساحل مدينة مالقة التابعة للملك غرناطة ، حيث أرمى التجار وأفرغوا بها بضائهم ثم تزودوا بسلع أخرى غيرها ، فأقمنا بها تسعة أيام سويا .

وفي أثناء إقامتنا هذه وصلت السفينتان اللتان مرّتا بنا فنقلنا رجالهما إلى سفننا وحملنا البضائع وعادتنا إلى قادمس لأخذ بضائع أخرى إلى هولندة ، على أنه لم يكن لنا شاغل أثناء هذه الأيام التسعة سوى استملاء النظر بروعة مدينة مالقة التي أنسرت في تأثيراً طيباً ، سواء من ناحية موقعها — رغم عدم وجود ميناء لها، — أو من ناحية تربتها — رغم قلة خيرها — ، غير أن كل ما فيها حسن ولا ينقصها شيء من البساتين والفواكه .

والمدينة منبسطة ومعظمها مسور ، وعلى جانبيها حصنان يصل بينهما ممر له حائط يسمونه « جبر الفار » ، وهي تفيض بشتى أنواع المتاجر ، ولو كانت تابعة لنا لكانت أحسن مما هي عليه ، غير أن جميع أنواع التجارة كان لابد لها من أن تذهب إليها من قطرنا الذي لا يخاف قط من أى مكان في حوزة المسلمين ، ويتدفق البحر تدفقاً يبلغ جدرانها حتى ليستطيع أى أسطول من الأغرابة سدّ بعض الأرمات إلى الأرض الواطئة ، إذا أن المنطقة الممتدة إلى البحر شديدة الانخفاض رغم حصانة تسويرها من ناحية البر ، وهي غاصة بالأهالى الذين تتألف غالبيتهم من طبقة التجار ، وإن قلّ البارح منهم في فنون الحرب .

وبعد أن قضى الجنوبية تسعة أيام في مالقة جمعوا بضائهم وجهزوا السفن

بالسلاح وأعدوها للإبحار ، إذ كان عليهم أن يسافروا قرب الشاطئ من لسان في البحر إلى لسان آخر على طول امتداد بلاد ملك أرغونة ، وتابعتنا الإبحار على طول ساحل غرناطة ، واجتزنا « سالوبرينا » وحصن « المنكب » و« الميرة » حتى أدركنا قرطاجنة الواقعة في بلادنا ، فدخنا الميناء ومكثنا هناك يوماً ونحن في انتظار سماع أخبار الكتلان .

وقرطاجنة كميناء — في تقديري — من أحسن موانئ العالم ، أما البلدة فرائعة ، وقد رحلنا وأبحرنا موازين لشاطيء « أرغونة » ، مارين « بلسكة » ، حتى غدونا على مقربة من « بلنسية » حيث أسدانا البعض النصيحة بمغادرة الساحل والخروج إلى عرض البحر ، فلما جاء اليوم التالي لمبارحتنا الشاطيء قاربنا جزيرة « إيفيشيا » التابعة لملك أرغونة ، ومن ثم تابعتنا طريقنا جاعلين « قطلونيا » و « برشلونة » على يسارنا ، مارين بجزائر « ميورقة » و« منورقة » التابعة للملك نفسه ، ودخلنا خليج « ليون » الذي يسمى بهذا الاسم حين خروج المرء منه ، أما عند مدخله فيعرف بخليج نربوية .

وحدث في ذات يوم عند صلاة الغروب أن هبت عاصفة هوجاء أرغمتنا على الهروب أمامها طوال الليل ، فلما كان الفد كنا جدّ بعيدين .

أما الشينيتان الكبيرتان فقد دفعتهما الرياح بلا أشرعة شطر سردينيا ، ومضى شهران لم نسمع فيها خبراً عنهما ، غير أن سفينتنا التي كانت لا تزال محتفظة بشراعها الرئيسي — وإن لم يبق منه غير جزء بسيط — فقد ظلت مصابفة للجزيرة التي يسمونها بجزيرة « تيتان » قرب شاطيء بروفس ، وبقينا يوماً هذا والليلة التالية له ونحن في خطر مقيم ومشقة بالغة ، بيد أننا تابعتنا السير ، حتى

إذا كانت الغداة وصلنا إلى نيسى ، وكانت الليلة ليلة عيد الميلاد فألقينا مراسدنا بها وأصلحنا أشرعتنا ، ثم سافرنا إلى مدينة « سافونا » الجميلة التابعة لجنوة ، وبقينا بها يوم عيد الميلاد<sup>(3)</sup> ثم أبحرنا في اليوم التالي ونحن جد قريبين من البر مقاربين للشاطئ على بعد أربعين ميلا من جنوة وهي أجمل منظر في الدنيا. ويبدو الساحل من سافونا إلى جنوة — لمن لا يعرفه — أشبه بمدينة واحدة موصولة ، وهو أهل بالسكان ، مزدحم بالدور .

## الفصل الثاني

جنوة . مقاضاة بعض التجار . سان لورنزو .

الأملاك الجنوبية في الخارج . السكان .

الثورة . يزا . فلورنسا بستويا .

بولونيا . البابا أبوجين . فرارا .

صكوك التبادل

البندقية

...

دخلنا ميناء جنوة على مقربة من الحاجز القائم بها ، واستقبلنا رجالها ونساؤها بغاية الترحاب وإن كانوا جدّ محزونين أسفاً على الركبين ، إذ لم يعلم أحد ما جرى لها ، وغادرنا السفينة ونزلنا اليابسة ، لكن قبل دخولنا المدينة قطعنا مسافة نصف فرسخ حتى بلغنا كنيسة سيدتنا كورونا وفاء لنذر نزرناه أثناء العاصفة ، ودبرت لنفسى مكاناً أقيم فيه طوال الخمسة عشر يوماً التي سأبقاها في جنوة ، والواقع أنني كنت في مسيس الحاجة إلى الراحة ، إذ أرهقني الانهماك في العمل وأمضيت الحزن وأجهدني دوار البحر ، وأحسست بشدة نغمتي على نفسى ، وكانت هذه أول مرة بدأت أعرف فيها الله ، إذ انقضت على بضعة أيام وأنا منهمك في مقاضاة فئة معينة من التجار الذين لم يحترموا بعض صكوك التبادل النقدي التي كانت معى ، غير أن الدوج<sup>(٤)</sup> — وكثيراً من سادة هذا البلد — أظهروا لى مزيداً من الاحترام وأحاطونى برعايتهم ، وحملوا التجار على أن يدفعوا لى استحقاقاتى وضعف النفقات التي حملونى إياها .

والمدينة قديمة جداً ، ويزعمون أن بانيها هو « جانوس » أمير طروادة بعد تدميرها<sup>(٥)</sup> ، والواقع أنها تبدو أشبه بعمل رجل ذاق سمرارة الهزيمة ، إذ أنها مقامة على جبل سامق الارتفاع مشرف على البحر ، وجميع بيوتها أقرب ما تكون شبةاً بالأبراج ، وهي مؤلفة من أربعة طوابق أو خمسة وقد تزيد عن ذلك ، على حين أن شوارعها شديدة الضيق ويصعب اقتحامها ؛ والتربة جد قحطاء غير أن أهلها أهل جد وعمل ، وهم يجلبون الميرة من جميع نواحي العالم ، ومن ثم فالمدينة وافرة المثونة كما لو كانت الأرض خصبة .

ولها ميناء رائع ورصيف به برج ومنارة تظل موقدة طول الليل ، ويوجد على الشاطئ الآخر للميناء برج ثان شديد الارتفاع ، به هو الآخر منارة حتى لا يضل أحد ما الطريق إلى مدخل الميناء ، وبلغت نفقات ذلك كله مبالغ طائلة .

والأديرة رائعة جداً شأنها في ذلك شأن كنائسها التي أعظمها الكنيسة للسماة « بسان لورنزو » التي بلغت الغاية في الجمال ، لاسيما سقيفة بابها ، ويحتفظ القوم بالكأس المقدس المصنوع من زمردة<sup>(٦)</sup> واحدة ، وهو في الواقع أثر مدهش من الخلفات القدسة ؛ أما حكم المدينة وإدارة جميع أملاكها ففي يد الأهالي الذين مكنتهم جدهم وحكمتهم من الاستحواذ على كثير من المدن والقلاع في الداخل ، كما ساعدتهم ذلك أيضاً على احتلال بعض الجزر في البحر . فلهم جزيرة « خيوس » و « ميتليني » ، وتتبعهم في جزيرة « قبرص » المدينة السماة « بالماغوصة » التي استولوا عليها حين أسروا ملك قبرص وحملوه هو وزوجته معهم إلى جنوة<sup>(٧)</sup> ، وقد ولد أبو الملك الحالي<sup>(٨)</sup> هناك في « فاروس » ، وسمى « جانوس » نسبة إلى مولده في جنوة ، وهم يملكون أيضاً مدينة « بيريه » المتاخمة للقسطنطينية ، ومدينة أخرى تدعى « كافا »

الواقعة في طرف البحر الأسود والمشابهة لإشبيلية في ضخامتها إن لم تزد عليها ، وللجنوبة بعض القلاع في بحر أزوف وكذلك في تركيا .

والشعب الجنوى شعب بحرى قوى جداً ، وتعتبر شوانى المدينة على الخصوص أحسن شوانى العالم على الإطلاق ، ولولا المنازعات العنيفة الناشئة بين أهلها لامتد سلطانهم على كافة أنحاء الدنيا ، وهم أهل جد لم تدنسهم الرذائل ولم ينفعمروا في المتع الجسدية التي لا تشجع عليها طبيعة البلد ، هذا بالإضافة إلى ما هم عليه من الثروة وحب النظام . أما فيما يتعلق باللبس فإنهم إذا رأوا أحداً — رجلاً كان أو امرأة — قد أسرف في ملبسه إسرافاً لا مبرر له فرضوا عليه غرامة . وبشرتهم جميلة جداً وإن لم يكونوا فاتى الوجوه رغم العناية بهم ذكوراً وإناثاً من حيث التغذية ، وهم يقومون النساء بأحجامهن ، فأفرعن طولاً أقلهن مهراً ، وإذا تزوجت المرأة لم تتزوج ثانية ، فإن فعلت ذلك لاكت الألسن سيرتها بقالة سوء .

\* \* \*

وفي أثناء الاضطرابات التي آلت بالناس دخل دوج « ميلانو » المدينة مع فريق من الثائرين . وتولى حكمها ، غير أن أهلها تمردوا — خلال إقامتي بها — على الدوج<sup>(٩)</sup> وقتلوا واحداً من قواده المقيمين بها ، واسمه « باسينو اليتانو » ، وهدموا حصنه القريب من المدينة ، وقد دعاني القوم لرؤية السجن الخيف الذي كان يُلقى فيه ملوك أرغونة ونفارة بمن يقع في أسرهم من الفرسان .

ويوجد السمك — وإن كان بقله — في البحر عند جنوة ولكن الموجود منه شديد الصغر . ولا جدال في أن لو كان رجال الأمم الأخرى قد طبخوا

كالجنوية على حب الرحلة موكلين بيقاع الأرض يذرعونها وتطول غيبتهم عن ديارهم تهدد الخطر الجسم عفة نساءهم ، غير أن القوم هنا يقدرّون الناحية الأخلاقية تقديراً عظيماً ، حتى إنه قل أن ترتكب امرأة الفحشاء ، فإن جرى مثل ذلك لم يكن لها من عقاب سوى القتل .

\* \* \*

غادرت جنوة وسافرت مبحراً على طول الشاطئ المزدحم بالسكان ، ومضيت إلى « سستري ليثانت » ، ومنها وصلت إلى « برتوفينيري » في اليوم الذي ثار فيه الأهالي ضد دوق ميلانو وملك أرغونة ، إذ كان الدوق قد سلم المكان للملك .

وبرتوفينيري ميناء جيد تواجهه جزيرة تعتبر خير وقاء له ، والبلدة شديدة المناعة لوجود حصنين يقعان عند طرفيها . ولقد أبحرنا من هنا إلى مدينة « سبزيا » الكبيرة التابعة لجنوة ، فأنحدرنا منها إلى « لريتشي » ، وهي حصن قوى من أملاك ملك أرغونة ، ثم جئنا بعد ذلك إلى « بيتراسانفا » ، حتى إذا كانت ساعة صلاة الغروب وصلنا إلى خارج « ليجهورن » ، وهي ميناء بيزا ؛ وكان كونت « موديك » قد جاءها من نابلي في أربعة عشر غراباً فأخذ سفينتنا وبعث بجميع من كان بها من الجنوية إلى الأغرّبة ، على أنه كان من جهة أخرى حفيّاً بي ، ولقيني لقاءً كريماً عظيماً ، وأبدي لي رغبته أن أرحل لساعتي ، غير أن بعض الفرسان القطلونيين أخبروه بمدى الخطر الداهم الذي أترض له من جانب الرجال المسلّحين في تلك النواحي الذين يستأجرهم كونت<sup>(١٠)</sup> فرانشسكو قائد الفلورنسيين إذ ذاك ، وكان حينئذ شديد التحيز للجنوية ، ولقد سمع الكونت مني كيف ثارت « بورتوفينيري » ضد ملك

أراجون ، وأن « نيكولا<sup>(١١)</sup> بتشنيو » كان هناك مع رجاله وكيف عدت معه إلى « ليرتشي » ووجدنا الحصن في أمان وسلامة ، ولكن المدينة في فتنة وقد نهبا الثوار وهاجموا « سيزيا » و« بورتوفينيري » برأوبجراً ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليهما رغم تخريبهم ما حولها .

أرسانى بعدئذ كونت « موديكاً » و « نيكولا بتشنيو » إلى « بورتوفينيري » وأعطيتني أربعة أسرى من الجنوية توكيداً لحسن معاملتي ، فلما بلغت « بورتوفينيري » - حيث كنت معروفاً بها - وجدت مركباً أبحرت فيه إلى « لجهورن » ، وإذ دخل المركب نهر « بيزا » وصلت إلى المدينة ، وإياه لمن الممكن على السفن - وقت المد - أن تصل إلى الأسوار ، ولقد مرّ وقت من الأوقات بلغت فيه بيزا معارج القوة والثروة ، ولها أملاك كثيرة ما بين أراض وجزر ، وقد غدى البيازة الآن خاضعين للفلورنسيين بعد أن كانوا سادتهم بالأمس .

بعد مغادرتي « بيزا » وصلت إلى « فلورنسا » ، وعلى بعد عشرة فراسخ من تلك البقعة عبرت قطراً كثير الفواكه ، واجتازت قرى كبيرة كانت مقفرة من السكان إبان الحروب البيزية ، وتشتهر فلورنسة بضخامتها وثروتها وجمالها من الداخل والخارج .

وهي تقع في سهل تقوم على جانبيه الضواحي العديدة ، وبشقها في الوسط نهر يصل إلى « بيزا » ، غير أنني لن أطيل الكتابة عن هذه المدينة مرجحاً كلامي عنها إلى وقت آخر<sup>(١٢)</sup> .

عبرت جبال الألب من فلورنسا إلى « بستويا » ماراً في طريقى بكثير من القرى حتى بلغت بولونيا ، حيث لقيت البابا « إيوجين<sup>(١٣)</sup> » ، ولقيتني

من كان بها من القشتاليين بأعظم آيات الترحيب ، كما أكرم القس والفرسان وفادتي وأصروا على مرافقتي حين التمتست الإذن من البابا في التوجه إلى بيت المقدس ، فأجاب ملتصقاً ولفحني ببركاته ، كذلك أعطاني صك غفران تام عندما تخين ساعة الموت ، ولقد بقيت مستجمماً هناك خمسة عشر يوماً شاهدت خلالها الحفلات التي يشترك فيها الأشراف والعامّة معاً على السواء ، وكان الوقت منتصف الشتاء حيث اعتاد الناس تسليمة أنفسهم والاحتفال بعقد زيجاتهم وإقامة أعراسهم .

وتعتبر المدينة نفسها جزءاً من لمبارديا ، وهي عظميمة الضخامة آهلة بالسكان ، تتوفر فيها جميع حاجات المعيشة ، ومن أجل ذلك تسمى « بولونيا السمينة » وأروع ما فيها بيوتها وشوارعها ، كما أن حاناتها قد بلغت الغاية من الحسن ، وأما أماكنها وأديرتها فأية في الجمال ، ومن أعظمها دير « القديس دومينيكو » المبشر المدفون به جسد ذلك القديس الطوباني الذي كان أحد مواطني قشتالة ، وهو « قزمانى » الأصل من ناحية الأب « وأساوى » من جهة الأم ، ولقد كان الأخ الأعظم « دون لويس دى قزمان » متحدرًا من نفس البيت ، ولقد أرسل إلى كبير خدام قصره « بدرودى قزمان » الذى كان سفيراً لدى البابا وعضواً فى سفارة الملك جوان طالبا إليه أن يقوم بزيارة المكان المدفون به القديس دومينيك ، وصرف مبلغ معين من المال به كان قد أعطاه له لهذا الغرض ، ففعل ما أمر به .

ولقد رأيت المصلى والمعبر ، وهما الآن على أبداع صورة من الزينة ولكنهما كانا مهملين من قبل أشد الإهمال ، كما نقشت حولهما ورسمت أسلحة قزمان التي أمر بعرضها هناك الفارس الطيب « دون لاييس دى قزمان » رئيس إخوان « كلاترافا » .

ويجري عبر المدينة نهير يرجع الفضل إليه فيما هي عليه من فتننة ، كما يوجد بها مائة عين ماء بطواحينها ، بعضها لطحن الغلال والآخر للتوابل ، وغيرها لتنظيف الأسلحة وصناعة الورق ونشر الأخشاب وغزل الحرير ، ومن ثم ينتفع الأهالي بالمياه بشتى الطرق . وتوجد على أحد جانبي المدينة قلعة ذات جدار من الحصياء التي تقاوم بشدة طلقات النيران ، كما تقوم هنا جامعة من أشهر الجامعات في الدنيا تدرس فيها جميع فروع العلم ، وترى الطلاب من مختلف الجنسيات وأعظام لرجال يعملون فيها باستمرار ، والمدينة تابعة للسكنيسة .

وفي أثناء إقامتي في بولونيا اشتريت حياضى ، وركبت ورجالى إحدى السفن ، ووضعت بها بضائعى وسافرت إلى « فرارا » عن طريق ذلك النهر الذى وصفته آنفاً ، وهو شديد الضيق حتى إنه لا يمكن لأكثر من سفينة واحدة المرور به ، وإذا حدث أن التقت به سفينتان اضطرت إحدهما إلى الجنوح إلى الشاطئ حتى تمر الأخرى ، وتتجمد مياهه كل ليلة ويستعمل الأهالي قوارب قد غطيت قيعانها بالحديد ، ومن ثم يروحون ويفدون بها ليلا على النهر ، ويمحطون الثلج بأعمدة ذات رؤوس حديدية مدببة ، وبذلك يشقون طريقاً للمسافرين به ، وترى الأطفال يرحون ويفنون مؤملين وجود الجليد بكثرة .

وقد استطعنا أن نصل عن طريق النهر إلى نهر « بو » ، وهو من أكبر مجارى المياه في الدنيا وأحد القروع الأربعة التى تنحدر من جبال الألب الألمانية ، ووصلنا عبر هذا النهر إلى مدينة « فرارا » التى ماكدت أبلغها حتى مثلت بين يدي صاحبها المراكيز<sup>(١٤)</sup> ، وبقيت بها ثلاثة أيام ثم غادرتها عن طريق النهر إلى مدينة « فرانكلينو » ، وتابعت سيرى بعدئذ بالسفن

في النهر ذاته حتى وصلت إلى البقعة التي تدخل البحر وتبلغ مسيرة يوم واحد .

بلغت البندقية<sup>(١٥)</sup> عند الغروب ، وقد قام على اليمين والشمال كثير من الكنائس والأديرة والحانات ، وكلها في الماء كالبنديقية ذاتها ؛ وما كادت قدماى تطآن اليابسة حتى أسرع لرؤية كنيسة القديس مرقس المبنية على مشارف المياه ، وأديت الصلاة بها ، فلما فرغت منها ذهبنا إلى خان اسمه « السمكة »<sup>(١٦)</sup> La Storione وهو من أحسن النزل بها وأروعها فأقنا به يومنا هذا والليلة التالية له ، فلما كان الغد بعد انتهاء القداس رحلت أسأل عن الصيرفي « سلفستر موروريني » حيث كانت معى صكوك مالية تدفع من قبله ، وسرعان ما وجدته فأخذ أحدها ونقدني القدر المطلوب ، وهذه طريقة لا يتوقفون قط عن الدفع بها ، ذلك أنه على الرغم من استعمال جميع التجار في كل ناحية من نواحي العالم صكوك الدفع هذه إلا أن القوم هنا أسرع الناس لقبولها ، ولقد قضيت ذلك اليوم معه ومع « كارلامدروزيني » وهو أحد التجار الذين كانوا في إشبيلية ، وظل أمدأ طويلا وهو يستأجر بعض المناجم ، وقد توثقت أواصر الصداقة بيني وبينه في بيت السيد « دون لويس » ، ومن ثم رحب بي أجمل ترحيب ، وأباح لي التمتع بالحرية في داره التي بقيت بها طول فترة مكثي في البندقية .

وحين كنت هناك رحلت أستفسر عن سفرني إلى بيت المقدس ، وعلمت استعماله النهوض بها قبل ثلاثة أشهر حيث لم تجر عادة سفن الحجاج على البحار حتى يوم الصمود في شهر مايو ، وأحبيت أن أقضى تلك الفترة في زيارة العالم نثسيحي ، ومنها بلاط الإمبراطور وبلاط ملك فرنسا ، غير أن أصدقائي التجار

الذين التمس مشورتهم نصحتوني بالتخلي عن هذه الفكرة إلى حين عودتي من أداء فريضة الحج لبيت المقدس ، على أن أقوم في أثناء ذلك بالتجول في أنحاء إيطاليا وهذا أمر جدير بالاهتمام ، وإذ كان موعد الصيام الكبير قد دنا ففى استطاعتى قضاؤه فى رومة ، ثم الرحيل بعدئذ إلى نابلى ومقابلة ملك أراجون ، وذكروا لى أنه بعد إنجاز ذلك كله يتبقى لدى عشرون يوماً أو أكثر قبل إبحار السفن إلى بيت المقدس ، ورأيت أن هذه خير نصيحة محضونى إياها فاستجبت لها ، ومن ثم مضيت لزيارة إيطاليا ، فشاهدت كثيراً من المدن الكبرى والصغرى والقرى والتلاع ، حتى إذا جاء الصوم الكبير ذهبت إلى رومة ، بيد أن البابا « إيجين » كان إذ ذاك فى مدينة « بولونيا » كما قلت آنفاً حيث أخرجته من رومة فريق من المشاعبين الذين امتشقوا السلاح ضده ، والذين كانوا يرومون قتله ، فإن لم يكن فأسره ، إلا أنه فرّ فى قارب على نهر التيبر ومضى إلى « بيزا » ، ومن هناك إلى فلورنسا ثم إلى بولونيا .

## الفصل الثالث

رومة . البابا . الأسوار . التير . الفاتيكان

نزل ماركس أويلوس . الكولوسيوم

بعض الكنائس . سوء حال المدينة

سكانها . الحيوانات الضارية

أقيمت في رومة<sup>(١٧)</sup> طوال فترة الصوم الكبير زائراً المعابد والمباني القديمة التي بدت لي أروع ما تكون صناعة ، ولا يقتصر الأمر على عجزى عن وصفها بل أشك في أنى مستطيع تقديرها التقدير الجديرة به ، وأرجو الصفح إن قصرتُ في بيانى عنها وفي وصف ما عليه رومة من فخامة وعظمة ؛ ولا أقدر على النهوض بمثل هذا الأمر نظراً للمدى البعيد من التخريب الذى ألمَّ بهذه المباني القديمة ، وما طرأ عليها من تغيير وتدهور ، ومع ذلك فمن الجلىّ البين أنها تبدو لمطالعيها أنها كانت في فترة من الفترات بالغة الفخامة رغم ما حاق بها من الأهوال بعد أن أخذت رومة في السقوط من جراء المنازعات التي شبَّ أوارها بين أبناء الأسماء أنفسهم ، ورغم الدمار الذى أنزله بها الملوك الذين حاربوها ، ورغم بد الزمن التي تطحن كل شىء بثقلها . أضف إلى ذلك أن البابا القديس جريجورى كان قد رأى جموع المؤمنين وقد انثالوا إلى رومة طلباً لنجاة أرواحهم تعزيهم الدهشة ويستقبد بهم الذهول لروعة المباني القديمة ، حتى أنهم ليقضون وقتاً طويلاً في تملّيحها والإعجاب بها ، وينسون

الغرض المقدس الذى قاموا من أجله بهذه الزيارة ، ومن ثم أنفذ البابا أوامره بتخريب كل أو عظم الآثار التى طاولت الزمن منذ القدم .

. . .

ومحيط دائرة المدينة كبير جداً ، وتمتد أسوارها محتضنةً إياها مسافة أربعة وعشرين ميلاً أعنى ثمانية فراسخ من فراسخنا ، وهذه الأسوار فى بنائها وارتفاعها تظهر كأنما قد فرغت اللحظة منها يد مبتدع صناع ، أما نواحيها التى هدمت فقد كان الطغاة ينفذون منها إليها بين آن وآخر لأن العمل من الضخامة بالدرجة التى يتحدى معها التخريب المقصود ، وإذن فلا عجب أن ظلت هذه الأسوار على حالها وبقيت كما بناها الأقدمون .

ويجرى فى وسط المدينة نهر جالبه الرومان إلى هناك وبذلوا جهداً شاقاً وأجروه فى وسطها وهو نهر « التبير » ، وجعلوا للنهر أخدوداً جديداً يزعم الزاعمون أنه من الرصاص ، ومدوا القنوات بين أطراف المدينة وتشرف على مداخلها وخارجها بنية سقى الجياد ولأداء سواها من الخدمات اللازمة للناس . فإذا دخلها أحداً من جهة غير تلك الجهات كان لابد له من أن يفرق ، وعلى جانبي النهر تقوم الطواحين التى تجعل من المدينة وحدة قائمة بذاتها .

وعلى أحد ضفتى التبير حصن قائم على ربوة ظلت تتراكم وترتفع حتى صارت جبلاً ، وحول الحصن سور شاهق الارتفاع به أبراج كثيرة قوية ويسمى حصن « سنت أنجلو » ، وهو يقوم على جسر مشرف على نهر التبير فى الطريق إلى كنيسة القديس بطرس التى تعتبر مركز الرسل ، ويقال إنه اجتاح رومة ذات مرة طاعون تفشّ بها واستمر أمداً طويلاً ، وأوحى إلى البابا جريجورى بوجوب الخروج فى موكب إلى كنيسة واقعة عند أحد طرفى المدينة

تسمى كنيسة « القديسة أجاثا » حيث كان يوجد صنم يعبده الوثنيون بل ويتقرب إليه المسيحيون سرًا ، لأن بعض الشعائر الوثنية ظلت حية باقية ، فلما وصل البابا في موكبه إلى الكنيسة وجاء إلى الصنم انطلقت منه جلبة أشبه بالعد وتهاوى قطعاً ، فلما أبصر البابا هذه العجيبة تابع موكبه ، وبينما كان عائداً خائفاً إلى كنيسة القديس بطرس عند الجسر الواقع عند سفح هذا الحصن تجلى للجميع ملك قد جرد سيفاً في يده وكله ملطخ بالدماء ، ثم أخذ يمسحه بعباءته ليزيل ما علق به من تلك الدماء ، ثم عاد فوضعه في غمده ، فعمد هذا الأمر إشارة إلى هدوء الرب وأنه لا يريد أن يموت أكثر ممن ماتوا ، وهكذا انهارت الوثنية ، وأطلق على الحصن منذ ذلك الحين حصن « القديس أنجلو » ، ولا يزال يسمى إلى اليوم بهذا الاسم وقد نصب عليه تمثال ملاك ، وأخذ البابا جريجورى هذه المعجزة وغيرها من الأمور القوية العجيبة التي جرت في رومة بعين الاعتبار ، ومن ثم شرع في هدم كثير من المباني القديمة لأنها صرفت انتباه الحجاج عن الأماكن المقدسة ، غير أنه لم يحطمها جميعاً ، ولا زال الذين يذهبون اليوم إلى هناك — إذا أرادوا مشاهدة الأسماء الجميلة — يمتصون إلى هذه الأطلال قبل أى شيء آخر .

ومسكن البابا ملاصق لكنيسة « القديس بطرس » على منحدرات تل « أفنتين » ، وهذه هي البقعة التي كانوا يستعملونها من قبل لضمان حرية روما ، وهي ذات الطريقة التي يصطنعونها لضمان الملة التي يعتبر البابا حامياً ضد المراطقة الذين يرغبون في محوها ، وجرت عادة الأباطرة على البقاء هنا عدة أيام قبل تنويجهم كما لو كانوا يمسكرون ضد أعداء الكنيسة ، ثم يقبلون بعدئذ التاج المصنوع من الذهب في سلسلة من الاحتفالات التي أعجز عن

تفصيلها ، أما مسكن البابا فكان متواضع ، وقد كان غير مرتب حين كنت هناك .

وكنيسة القديس بطرس<sup>(١٨)</sup> بيعة شهيرة ، ومدخلها رائع جداً ، ويصعد المرء إليها بدرجة بالغ الارتفاع ، وتحلى سقفها الفسيفساء الكثيرة ، أما الكنيسة من الداخل فضخمة وإن تسكن شديدة البساطة ، وقد بلغت من السوء والقذارة حداً كبيراً ، وقد تهلم أكثر نواحيها ، ويوجد على يمين الداخل عمود يسامى ارتفاع برج صغير ، وفيه « الفيرونيكيا » المقدسة التي إذا أريد عرضها فتحت فتحة في سقف الكنيسة ودُلِّي منها صندوق خشبي أو مهدٌ جلس فيه خوريان ، فإذا نزلا رفع الصندوق أو المهد وأخرجا « الفيرونيكيا » في توقير عظيم وعرضها على الناس الذين تحتشد زرافاتهم هناك في ذلك اليوم الموعود ، وكثيراً ما يحدث أن تصبح حياة المصلين في خطر لكثرتهم وشدة تراحمهم .

وعلى مسافة أبعد قليلاً يوجد عمودان كبيران قد أحيطا بالخشب يُربط إليهما من به مس من الشيطان ، وقد بشر سيدنا من هذين العمودين بين أهالي بيت المقدس ، وأمامهما الحبل الذي شقق به يهوذا نفسه ، وهو في نخانة ذراع الرجل أو أكثر ، كما يوجد في الحراب الأعلى جسدا القديسين بطرس وبولص ، وفي يوم معين من أيام السنة يكون غفران الخطيئة والعقاب ، كما يوجد هنا أيضاً الكرسي الذي جلس عليه القديس بطرس ، والذي يجلس عليه البابا يوم انتخابه ، والواقع أنه من الخير أن ينظر الأغراب إلى هذا الكرسي بالتوقير لأنه ليس بالفني ولا بالموقر .

وبهذه الكنيسة كثير من العابد ، ويقوم في الجانب الآخر منها برج<sup>(١٩)</sup>

عالٍ صنع من قطعة واحدة من الصخر أشبه بقطعة الماس المثلثة الجوانب قد رفعت على ثلاثة قوائم نحاسية ، وبعدئذ الكثيرون هذا البرج شيئاً مقدساً فتراهم يزحفون بين الأرض وقاعه ، وكان قد أقيم تمجيداً ليووليوس قيصر وخصص لدفنه ؛ وبأعلاه ثلاث تفاحات ذهبية كبيرة فيها تراب الإمبراطور يوليوس قيصر ، ولا شك في أنه بناء نفخ رائع التنظيم بالغ الغرابة وهو يسمى بمسلة قيصر ، قد نقش في وسطه وأسفله بل وعلى أعلاه أيضاً بضع رسائل قديمة مكتوبة على الحجر ، وإن صعبت قراءتها الآن ، ولكنها تشير في الواقع إلى أن جسد يوليوس قيصر مدفون هنا ، وحول هذا البرج كثير من المائر التي آل معظمها إلى أطلال دائرة .

\* \* \*

وسكان مدينة رومة قلة إن هم قيسوا إلى حجمها ، ويذهب الكثيرون للاقول بأنه نظراً لتدهور المدينة وقلة عدد سكانها فإنه يخرج من بين أطلال المباني الكبيرة ومن الخازن ومن الصهاريج والبيوت ومن الأقبية العميقة المهجورة الآن هواء سام يضر بالأجسام الآدمية ، ومن ثم يقال إن رومة مدينة غير صحية ، على حين أنها كانت عكس ذلك يوم كانت حافلة بالسكان ، بل إنه ليبدو - حتى اليوم - أنه حيث يزدحم السكان ينعم الناس بصحة أحسن كما هو الحال في « كامبو دي فياري » وهو حي كبير وكذلك « كامبي دوليو » ، وهو الآخر حي كبير أيضاً ، وفي « جليتو » التي هي أشبه ماتكون بقرية كبيرة ، أما بقية أنحاء المدينة فلا تضم سوى قليل من المنازل البعثرة .

كانت كنيسة القديس يوحنا أول كنيسة أقيمت بين الشعوب اللاتينية ، ومن هذه الكنيسة يستمد الآباء المقدسون ألقابهم التي بها يصبحون مطارنة ،

وفي هذه الكنيسة وحولها أشياء فريدة تستحق المشاهدة ، فيقال إن هذه الكنيسة كانت البيت الذي احتفظت فيه رومة بثروتها، وبها بوابة «تريان» التي فتحها قيصر - حينما استخرج الثروة - والتي ظلت حتى ذلك الوقت مغلقة ، ولما اعتنق الإمبراطور قسطنطين العقيدة الكاثوليكية وأعطى ممتلكات الإمبراطورية للكنيسة ومنحها إياها التمس من البابا سلفستر إصدار مرسوم بشأن هذه البوابة من أجل أرواح الذين يمرون بها باعتبارها كانت من قبل ملاذاً لمن يحتجى بها ، فإذا قدم هارب ما وبلغ بوابة تريان لم يستطع أحداً ما أخذه مهما بلغت جريمته وذلك تقديراً للكنز الموجود، ورسم البابا في البداية يجب خطيئة كل من يعبرها وإسقاط عقابها ، مما حمل البعض على تعمد ارتكاب الخطيئة على أن تغفر لهم بعد مرورهم من هذه البوابة ، ومن ثم أمر البابا بإغلاقها وأن تفتح مرة كل مائة سنة ، ثم خفضت المدة إلى نصف قرن من الزمان ، والآن فإن البابا راض بما رسم .

ويوجد بهذه الكنيسة رأسا القديسين بطرس وبولص ، وهما أثر عظيم جداً وآيتان لغفران الخطيئة ومحو العقاب حين عرضهما كما يحدث أثناء عرض فيرونكا في كنيسة القديس بطرس .

وإلى جانب تلك الكنيسة يوجد مذبح صغير يسمونه «قدس الأقداس» به صورة للسيد المسيح تبدأ من الزنار إلى أعلى وهي منقوشة على حجر، ويقال إن سيدتنا العذراء التمس من القديس لوقا - وكان رساماً قديراً - أن يرسم هذه الصورة بعد موت ابنها ، فقبل رجاءها ورسم الصورة التي هي في الواقع عمل من أعظم الأعمال قداسةً وأنسب ذكرى للمسيح الذي كان ولا تزال له القوة على جميع الأشياء ، والصورة تظهر بجلاء هيكله وعمره وشكله وكل ما كان عليه ، وعلى خده الأيسر خال هو رمز إنسانيته ، وهي أقدس شيء

وأعظم أثر في رومة . ويجرس الصورة على الدوام - وساعةً بعد ساعة - أربعة رجال مسلحون بصولجانات حديدية ، فإذا كان يوم معين من السنة وهو عيد العذراء في منتصف أغسطس خرجوا بهذا الأثر المقدس محروساً برجال مدججين بالسلاح ، وحملوه وسط مظاهر الفرح وساروا به في موكب إلى كنيسة القديسة ماريا الكبرى ، حيث يبقى طوال هذا اليوم وتلك الليلة ثم يعودون به في اليوم التالي إلى موضعه الذي كان به ، وتغفر إذ ذاك خطايا جميع من يكونون حاضرين ، على أنه لا يسمح قط لأية امرأة بدخول الكنيسة ، ويقولون إن السبب في ذلك هو ما حدث ذات مرة من أن امرأة تحدثت بما جرى فانشطرت شطرين ، وعلى باب هذه الكنيسة ناقوسان يقال لهما كانا أول ناقوسين صنعنا في العالم .

ويجري انتخاب البابا في كنيسة القديس يوحنا ، حيث تقام مختلف الاحتفالات ، ويقسم البابا التاج الثلاثي ، وتحفل الكنيسة بكثير من آثار القديسة هيلينا أم الإمبراطور قسطنطين التي بعث بها ابنها حينما كان في الأرض المقدسة .

أما الكنيسة فكبيرة ولكنها ليست غنية ، ويفقصها حسن البناء ، وتعوزها النظافة والزينة الجيدة ؛ على أنه يوجد خارجها ميدان كبير به كثير من المباني والتذكارات القديمة ، ويقوم هنا تمثال « ماركوس » (٢٠) الذي كان سبباً في رفع الحصار عن رومة ، والذي أراد أن يقتل الملك فقتل عشيقته ، فأدان نفسه وأمر بحرق ذراعه اليمنى ، ويرى ممتطياً جواداً كبيراً من النحاس المذهب ، ويدل كل من التمثال والحصان على أنها من يد ماهر صناع في حرفته ؛ ويوجد حول الميدان وعلى مقربة منه كثرة متنوعة من التماثيل

الحجرية والرخامية والأحجار التي نقشت عليها نقوش قديمة .

وعلى مقربة من الميدان يقوم «الكلولوسيوم» الذي يقولون إنه لا يماثله بناء قط في العالم بأجمعه من حيث حجمه وعظمته ، وعلى الرغم من استحالة أكثره إلى أطلال إلا أن ما بقي منه يشير إلى ما كان عليه من فخامة وروعة ، وبطول بنا الكلام لو أردنا الحديث عن الكيفية التي حافظ بها الرومان على «الكلولوسيوم» وتوقيره وعن التمثال الذي كان عندهم هناك<sup>(٢١)</sup> ، فقد كان كبيراً جداً حتى إن قدميه كانتا على الأرض على حين تبلغ رأسه أقصى ذروة في السقف وترتفع ذراعه اليمنى ، على حين يمسك بيده فتاحة كبيرة ، وهي موجودة الآن على باب القديس يوحنا اللاتيران ، ومعنى هذا في زعمهم أن العالم بأجمعه في قبضته ، ومن هنا يقال إنه جاءت العادة بحمل فتاحة أمام الأباطرة ، ويضيفون إلى ذلك أن هذا التمثال كان محاطاً في وقت من الأوقات بتمثيل لجميع ملوك العالم وأسرانه ، وقد شدت رقبة كل واحد إلى قدم هذا التمثال الكبير بسلسلة ، فإذا عرف أن أحد الملوك أو الأسماء قام بالثورة ضد رومة كسرا القوم تمثاله وصدرت الأوامر بإعلان الحرب عليه . ومهما تكن الحال فإن «الكلولوسيوم» يدل على أنه كان في زمن من الأزمنة بناء رائعاً وفاخراً .

وتوجد على مقربة منه قصور أكتافينوس أو غسطينوس<sup>(٢٢)</sup> التي يقال إنه بناها وحصنها لما قصه عليه أحد السبليين من سقوط تمثاله إن جاءت العذراء بولد ، وكان هذا ما حدث من انهيار قصره يوم مقدم سيدنا ومولده ، ويقال إنه في كل سنة حتى الآن يسقط جزء يوم مولد السيد المسيح ، وتوجد هنا ربوة كبيرة تشبه التل ، ويبدو جلياً أن هذه الربوة نتيجة سقوط بعض المباني البالغة الضخامة ، حيث يتسنى للمرء رؤية كثير من الرخام والأحجار الكبيرة

وغيرها من الأشياء التي تكشف النتائج عما كانت عليه ، ووجودها أيضاً دير شهير لأنباع «القديس برنارد» يسمى بدير «سانتا ماريانوفا» .

وبرومة كنيسة يسمونها كنيسة « سنت كروس » المقدسية محفوظة بها اللوحة التي كانت مرفوعة على صليب سيدنا وعليها لقبه « عيسى الناصري » (Jhs Nazarenus) وجميع ما في هذه الكنيسة - من أرضها وجدرانها وكل شيء آخر - مصنوع من تراب جيء به في السفن الرصيف من بيت المقدس ، وذلك حين أرسلت القديسة هيلينا الآثار المقدسة إلى رومة ، وهنا تم المغفرة التامة للاخطيئة وبسقط العقاب، وتوجد كنيسة تسمى كنيسة «القديسة مارية»<sup>(٢٣)</sup> كانت فيما سبق المكان الذي يعقد فيه الشعب الروماني مجلسه ، وهي قائمة على أعمدة كبار تعلوها طبقة من الرصاص ، ويخصص يوم واحد في السنة لمنح الغفران بها ، كما توجد كنيسة أخرى خاصة بطائفة معينة من الراهبات يوجد بها رأس القديس « بوحنا المعمدان » حيث يمنح الغفران في يوم عيدهِ ، ويجاوره عمود كبير مصنوع من حجر واحد أقيم تخليداً لذكرى الإمبراطور «تراجان» الذي جاء من قشتالة وكان من أهل « بدرازا » ، وهو الذي سنّ لرومة قوانينها التي لازلتنا ولازال الرومان يعملون بها حتى يومنا هذا ، سواء في الحرب أو في تصريف الأمور العامة ؛ ويوجد أيضاً ثلاثة أو أربعة أقواس ولعل الرومان أقاموا أكثرها تمجيداً لشرف المنتصرين منهم ، ومن بينها قوس<sup>(٢٤)</sup> رائع جداً عمل تعظيماً ليوليوس قيصر .

وثمة كنيسة أخرى تدعى كنيسة «سانتا ماريانوفا» تحتها حجرة كبيرة على شكل قبو كان الرومان يعقدون بها مجلسهم في بعض الأحيان ، وجرى فيها اغتيال يوليوس قيصر على أيدي «كاسيوس» و«بروتوس» ، ويتأخرها كنيسة

«سانتا ماريا ماجورى» حيث يمنح الغفران التام بها في يوم معين من السنة؛  
ويوجد عند الباب - في الميدان الكبير - عمود من الرخام السماقي يحمل ثمنه عن  
التقدير ، وتحفل هذه الكنيسة أيضاً بكثير من الآثار المقدسة .

\* \* \*

ويتصل بها كنيسة «القديس براسادا» التي يوجد بها نصف العمود الذي رفع  
عليه المسيح ، ومسجى بها أيضاً جثمان القديس «جبروم» الطوبانى الذي يمنح  
الغفران التام يوم الاحتفال بعيده ، أما الكنيسة التي حبس فيها القديس  
بطرس فتسمى بكنيسة « بطرس المصدق » حيث يمنح الغفران كذلك ، وخلف  
أسوارها تقوم الكنيسة التي أعدم<sup>(٢٥)</sup> فيها القديسان «بطرس وبولص»  
والتي يوجد بها بعض العيون ذات المياه الشافية ، وهنا أيضاً تم نعمة الغفران  
التام ، ويجاورها دير القديس بولص ، وهو دير شهير جداً للاخوان المبشرين ،  
وفيه أيضاً يمنح الغفران .

\* \* \*

وتتوفر بهذه المدينة أشياء أخرى كثيرة ومعابد ، ويتم بها الغفران ، كما  
توجد فيها مبان مدهشة يستغرق وصفها أمداً طويلاً ، ولما كان الذين يقدمون  
لزياره الأماكن المقدسة يمضون وقتهم في الإعجاب بالمباني القديمة والأطلال  
فقد أمر البابا جريجورى بتحطيمها أو تحطيم معظمها حتى لا يشغل الحجاج بالهم  
بها ، وحتى ينصرف اهتمامهم إلى الأماكن المقدسة وحدها ، ومع ذلك  
فإنه لم يستطع هدمها جميعاً ، إذ أن مابقى منها ليظهر ما كانت عليه هذه الأشياء  
أو بعضها يوماً ما .

وهنا كان قبرا « رومولوس » و « ريموس » أول بناء روما ، كما نصب  
كذلك كثير من التماثيل للرجال والنساء تذكراً خالداً لأعمالهم . وأما رومة

التي كانت رأس العالم وأصبحت الآن ذيله فلم تفقد شيئاً من شعائرها التي كانت لها يوم كان العالم بأجمعه يدين بالخضوع لها ، ولكن تعاسة أحوال المدينة اليوم تجعل من العار التكلم عنها ، ويقال إن الرومان — رغبة منهم في ألا يفقدوا مكانتهم كسادة للعالم وقت أن كانوا مسيطرين عليه — يقوّمون في يوم معين من السنة بتقديم احتجاج رسمي إلى البابا معلنين أنهم لازالوا مستعدين لإخضاع العالم كما كان الحال قديماً ، وأنهم لم يفقدوا حقوقهم وإنما جردهم البابا منها ، ويقومون بهذا الاحتجاج الرسمي يوم الثلاثاء الذفر ، ولو شاء الله أن يكونوا قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم ولم يكونوا — كما يقول الإبطاليون عنهم — شعباً غير ذي قيمة لما مارسوا كل رذيلة ، ولما لعنهم الجميع .

ولم أجد في روما واحداً استطاع أن يكون قادراً على إنبأى بخبر تلك الأشياء القديمة التي كنت أستفسر عنها، ولكنهم قادرون بلاشك على تزويدى تماماً بأماكن جميع الحانات وسواها من الأماكن ذات السمعة السيئة ، ويقال إن الناس لا يتناولون أبداً غذاءهم في بيوتهم مهما كانت الظروف، وهيات أن يتأتى لأى معجزة أن تحملهم على ذلك ، وليس من شك في أن ما يبسمهم ومظهرهم — داخل بيوتهم وخارجها — يكشف بجلاء عن حقيقتهم ، وينصب قولى هذا على أغلبهم ، إذ أنه لا جدال في أن بين هذه الكثرة جماعة من الصالحين ، ويقال أكثر من ذلك إن رومة تضم بين جوانبها من السكان رغم قلة عددهم أكثر مما يضمه أى بلد نصرانى آخر في العالم ، غير أنه يوجد بعض نواح داخل أسوارها تبدو كأنها الغابات الكثيفة ، حتى ليقال إن الحيوانات المفترسة والأرانب والثعالب والذئاب والغزلان بل والقناقد تعيش في الكهوف .

وبرومة لوحان يزعم القوم فيما يزعمون أنه حدث ذات مرة شجار بين

العامة والنبلاء ، طلب فيه الشعب معرفة السبب الذي يذهب من أجله النبلاء بالتقدمة دونه ، على حين أنهم جميعاً أبناء أب واحد هو آدم وأمهم بالتالي جميعاً حواء ، وقال العامة في نقش نحتوه (٢٦) :

Cum Pater Adam nobis sit, mater Eva, Cur igitur non Sumus nobilitate Pares ?

« إذا كان آدم قد خلق من أجلنا ، فبما أننا حواء لماذا نحن غير متساوين في كرم الأصل ؟

وإذ ذلك أجابهم النبلاء : « كل الناس يفسدون بتصرفاتهم ، ويصبحون أقل درجة ، ولكن الفضيلة أرفع ، والأخلاق تطوّر إلى الارتقاء »

Degenerant omnes viciis, fuint que minores, exaltat Virtus, nobilitantque mores.

ومن ثم يقال إن للنبلاء سلطة شرعية تفوق سلطة العامة . أضف إلى ذلك أن هذا كان السبب الذي من أجله نص القانون على أنه لا يحق للرجل أو المرأة من الشعب أن يتولى منصب القنصلية ، وقد سُجِب هذا القانون فيما بعد حين اقترح « سالوست » تعيين — جايوس ماريوس في مجلس السينيت .

## الفصل الرابع

زيارة بعض المدن الإيطالية . مقابلة

كونت أرينو رافنا والبندقية .

الاستعداد للرحلة

غادرت رومة وبلغت « فيتربو » ، وهي مدينة رائعة جداً حيث توجد بها حمامات ذات مياه ساخنة يقال إنها تشفى جميع العلل وتُذهب شتى الأمراض ، كما يقولون إن البابا أنفذ أوامره بهدمها استجابةً لالتماس طبيبه الخاص ، ولا يعرف أحد الآن أى أنواع الأمراض تبرئ هذه المياه ، وإن ساد الاعتقاد أنها شفت في فترة قصيرة — منذ إنشائها — مرض الاستسقاء ، كذلك يوجد في « فيتربو » جمان القديسة روزة المقدس .

تركنا فيتربو ومررنا بـ « نارفى » و « تيرنى » و « سبوليتو » ، حتى أدركنا في النهاية « بيروجيا » الذائعة الصيت التي ولد بها القائد العظيم « بركيو »<sup>(٢٧)</sup> و « سفورزا » والد دوق ميلانو الحالي .

وهذا الإقليم بأجمعه أهل بالسكان ، حتى لتبدو المدن والبلاد والقلاع وكأنما قد اتصل بعضها ببعض الآخر .

غادرت بيروجيا إلى « أستيسى » التي ولد بها القديسان فرنسيس وكثير ثم احتوت أرضها جمانيهما ، وهي مدينة ناهية ، تضم بين جوانبها ثمانية أو عشرة أديرة للرجال والنساء من أتباع الطوباني المبارك فرنسيس ، ويقع الدير اليرئيسي في أكبر ميادينها ، ولما مضيت للنزول فيه وجدتُ به واحداً من

أتباع كردينال قشتالة الذى كان صديقاً حميماً لى فأقت بالدير مستجماً ثلاثة أيام سويا ، والشائع أن جسد القديس فرنسيس مدفون فيها بيقعة ما يدلون الطالب عليها ، وإن كان الحق أنها غير معروفة على وجه التأكيد حتى ولا لمن بالدير ذاته ، ولا يعرفها حقاً سوى البابا الذى أفضى بسرهما إلى أحد الكرادلة وإلى واحد من الإخوان الرهبان . وهذا الدير يبلغ من الروعة أقصاها ، ومن إبداع الصنعة منمهاها .

رحلت بعدئذ إلى «جوييو» التابعة لكونت «أدينو» من بيت ملاستما<sup>(٢٨)</sup> ، بيد أنى صادقت فى الطريق عسكرياً مدججاً بالسلاح قد أقامه كونت فرانشسكو الذى كان إذ ذاك قد شنّ حرباً على البابا واستولى على كثير من الأماكن ، فنصحنى البعض أن أرسل جيادى من «أسيسى» بصحبة رجل معروف هناك كان ماضياً لمقابلة الكونت ، وذكر لى هذا البعض أنه يرى الخير لى فى ذهابى مترجلاً، فامتثلت لمشورته ، وبمد مسيرة يومين ونصف يوم أدركت «جوييو» ، وهى مدينة كبيرة تابعة للكونت الذى وجدته إذ ذاك ماضياً فى موكبه مترجلاً لتحية كردينال كولونيا أخى زوجته وابن أخى البابا مارتى ، ثم أبصرته قادماً وقد أحاط به رجال الدين وهو يرتل معهم حيث قابلوا الكردينال وتلقوه لقاء كريماً ، فقدمت نفسى للكونت ورفعت إليه احتراماتى والنمت منه — محبةً فى الله — أن يمد يد المعونة لى ، فما أنا إلا رجل فقير قادم من روما وماض فى طريقه إلى بيت المقدس ، وكان رجالى قد تخلفوا عنى ، إذ كنت قد طلبت إليهم عدم مصاحبتى ، فانتجى بى الكونت جانباً وبادرنى قبل كل شىء بالسؤال من أين جئت ، فقلت «من أسبانيا» ، وحينذاك أخذ يستوضحنى عما إذا كنت عريق الأصل ، فقلت «أجل» ، فسألنى إن كنت فارساً فرددت عليه بالإيجاب ، وتطرق بعدئذ فرغب فى أن أخبره كيف جئت وعما أحجابه ،

فأفضيت إليه بجزر مقدمى وحضورى سيراً على الأقدام ، وزدت فأثبت أنى فى غير حاجة إلى شىء ما لاستكمال رحلتى بسبب ما توفر لى ، وذكرت له أنى ماجئت متنكراً على هذه الصورة إلا لرؤيته والتحدث إليه ، فعانقتى حينذاك وقال « سوف أبذل كل ما فى قدرتى لمساعدتك حتى ولو لم تقبل » ، إلا أننى أجبته بعدم قدرتى على قبول شىء ما أياً كانت الظروف طالما أن لى كل ما أحتاجه ، ولأننى صممت على ذلك قبل مغادرتى وطنى ، ورغم هذا فقد استبقانى يومين للاستجمام والمتعة ، حتى إذا انقضى هذان اليومان بعث فى طلب أحد أتباعه وأمره بمرافقتى طوال تجوالى فى ولايته حتى أبلغ ميناء « ريمىنى » التابعة له ، على أن تكون جميع مصاريف سفرتى هذه على نفقته فلما بلغت « ريمىنى » وجدته قد هياً لى مركباً وكل ما أحتاجه فى رحلتى إلى البندقية .

وعندما هممت بفراق الكونت أخذنى من يدى ومضى بى إلى حجرته ، وطلب إلى أن آخذ كل ما أنا فى حاجة إليه ، وأعطانى ثلاثة أزواج من كل من قصانه وملابسه الصوفية ومناشفه ، وإن يكن قد أزعجه كل الانزعاج رفضى قبول أى شىء آخر غير ما أخذت ، ثم ودعنى وداعاً رقيقاً كما لو كنا ندين متساويين ، وألح على أن أذكره فى صلواتى ، وأن أعاود زيارته وأنا فى طريق أوبقى ، إلا أن الموت قد مديده إلى هذا الكونت الطيب ، ويقال إنه مات ميتة كريمة جداً ورفع إلى مرتبة القديسين .

وتحمل « جيبىو » بكثير من الخلفات المقدسة التى من بينها أصبع يد يوحنا للعمدان اليمى التى أشار بها حيث قال « هذا هو حمل الله » . Ecce agnus Dei . رحلت مع ذلك التابع وبلغت « أريننو » التابعة للكونت فلبشنا بها

يوماً واصلنا رحلةً استغرقت يومين بلغنا في نهايتهما مدينة «ريميني» الكبرى التابعة هي الأخرى للكونت ، وأقمت بها يومين ، جهز لي خلالها التابع قارباً شحنه بالزاد ، ودفع جميع نفقات السفر حتى أبلغ البندقية ، فلما هممت بفرقه قال لي : « سيدى الفارس ، لقد أمرنى مولاي الكونت بأن أعطيك مائة دوكات وها هي ذى الآن » ، فطلبت إليه أن يشكر الدوق شكراً عظيماً على شفقتة وكرمه ، إذ لى من المال ما يكفى جميع حاجتى ، وقلت له : « إن وجدت نفسى فى ضائقة فى طريق عودتى إلى وطنى فإنى لا بد ملتصق منه مساعدته إياى ، هذا إلى أن رجوعى قريب » ، ثم رجوته أن يقبل لي يدى الكونت نيابة عنى ؛ ومن ثم انطلق كل منا فى سبيله .

ركبت سفينتى وأبحرنا ، فبلغنا فى اليوم التالى مدينة رافنا الكبيرة الموعلة فى القدم وإن تكن غير زاخرة بالسكان ، وصادفتنا ريح رخاء ، حتى إذا كان وقت المغرب أدركنا البندقية فتلقانى أصدقائى التجار لقاء طيباً ، ووجدت الأموال التى تركتها عند مفادرتى إياها فى يد أمينة ، فأقمت فى بيت صديقى « كارلوموروسينو » ثلاثين يوماً أو أكثر ، حتى جاء يوم الصعود الذى يقع فى شهر مايو الذى يؤذن فيه للسفن — لاسيا سفن الحجاج — بالإقلاع<sup>(٩)</sup> ، وقد انفتحت أثناء إقامتى هذه مع قائد السفينة — كما جرت العادة — على تسكليف رحلتى وتموينى بذخيرة من المأكولات المحفوظة لوجبات الإفطار والغذاء والعشاء ، وكذلك أجر السفر ذهاباً وإياباً ، فسكان خمسة وثلاثين دوكتاً عن كل شخص ، ولما كنت قد فكرت فى الإقامة بالقدس فقد دفعت عن نفسى وعن تابعى<sup>١٠</sup> الاثنى مبالغ ستين دوكتاً أى عشرين دوكتاً عن كل واحد منا .

ولقد أمضيت بالبندقية فترة من الزمن حلوة مريحة ، لم أتكلف فيها من النفقة غير شيء زهيد ، وكنت أخرج كل يوم لمشاهدة كثير من الأشياء الرائعة البهجة ، وتأتي الأخبار كل ساعة من جميع أقطار الدنيا لشدة نشاط حركة الملاحة ، كما تصل السفن باستمرار من شتى النواحي مما يقتضى المرء الاستفسار عن السفن إن هو شاء التماس نبأ ما من أى مكان .

## الفصل الخامس

زارا . راجوزا . كورفو . خليج كورثة

دير اغريق . ميدونا . كريت . رودس

الاسبانية . الوصول إلى يانا

رحلنا يوم عيد الصعود بعد تناول البركة وأبحرنا ظهراً واتخذنا جانب الخليج الأيسر لأخذ المؤنبة، ميممين وجهنا شطر إسكلافونيا [ دلاشيا ]، والجانب الأعظم منها بندقي، وتتناثر على طول الساحل كثير من المرافق الأمينة والجزر والموانئ، فلما كان اليوم الثاني بلغنا بلدة تدعى « بارنزو » حيث ركبنا البحر منها إلى مدينة « زارا » التابعة للبنادقة، ثم وصلنا إلى « راجوزة » الداخلة ضمن أملاك الإمبراطور، وظلنا طول هذا الوقت نمر بجزائر تابعة لإسكلافونيا، بعضها أهل بالسكان والبعض الآخر مقفر، والإقليم جبلي قتل، وأهله أطول من رأيت قامة ولكن ما أعظم همجيتهم، وتربى في هذه النواحي أحسن أنواع البزاة في العالم باستثناء البزاة النرويجية، ويقال إن الفضة موجودة في أماكن كثيرة بها.

تابعنا رحلتنا على طول الخليج مارين بمدينة « قالونا » الكبيرة التي سقطت حديثاً في أيدي الترك، فلما غادرنا إسكلافونيا أبحرنا مصابيين لألبانيا وهي جزء من نفس هذا الساحل، وتركنا إيطاليا ورأس « سبارتيفنتو » على يميننا.

ويمتد خليج البندقية مسافة ثمانمائة ميل بين إيطاليا وإسكلافونيا،

وتقع في نهايته جزيرة « كورفو » التي يسميها البنادقة ببابهم ، رغم أن البندقية تبعد عنها في الواقع بثمانمائة ميل ، ويوجد على اليد اليمنى ذلك الجانب من إيطاليا المسمى « بأبوليا » وأرض « لافورو » ، أما على اليسار فتقع إسكلافونيا التي كانت تعرف قديماً بدماشيا وكذلك جزء كبير من ألبانيا :

ويسكن الإغريق جزيرة كورفو التي استولى عليها منذ أمد قريب لاديسلاؤس ملك نابلي<sup>(٣٠)</sup>، وكان أخذه إياها بنية الاستيلاء على بيت المقدس التي يسمي نفسه بملكها ، ويقال إن حاجته إلى المال فيما بعد حملته على بيع الجزيرة إلى البنادقة الذين آلت ملكيتها إليهم الآن ، وقد بقينا بها يومين في انتظار ربح مواتية ، فلما كان اليوم الثالث أقلعنا مبحرين إلى « مودون » ببلاد اليونان ، وقد صهرنا هذا اليوم بخليج « بتراس » على شمالنا وتمتعنا متعة كبيرة بمنظره ، وتقع هنا مدينة « كورنثة » ، وهي مدينة قديمة جداً وذات أبنية رائعة، ولكنها الآن قليلة السكان قلّة بالغة ، ويدخل هذا الخليج الأرض ويكون بالتقاءه بالخليج الآخر الذي يدخل من الناحية الأخرى : شبه جزيرة المورة ، التي كانت تسمى في الأزمنة السحيقة « بأخيا » ، ويحكمها إمبراطور القسطنطينية، وهي إرث للابن الأكبر الذي يسمونه بطاغية المورة ، ويتوغل هذان الخليجان توغلا كبيراً في الداخل حتى ليقال إن المسافة الفاصلة بينهما لا تتجاوز ميلين ، وقد حدث ذات مرة أن أراد أحد أباطرة القسطنطينية أن يحيل شبه الجزيرة إلى جزيرة لسكنه رجع عن فكرته امتثالاً لرأى مشيريه واستجابة لتوصيحتهم ، إلا أنه أحاطها بسور شديد المنعة لا يزال يرمى حتى اليوم .

فلما كان اليوم الرابع أصبحنا مواجهين لمدينة « مودون » ، وقبل

وصولنا إليها بستة أميال مررنا بجزيرة صغيرة يقوم بها دير شهير لإخوة  
« سنت باسيل » اليوناني الذين يسميهم اللاتين بالرهبان .

ولما كانت الريح قد هدأت وكفت عن الهبوب فقد رغبت في رؤية  
الدير ، فسألت ربان السفينة أن ينزلني إلى الشاطئ ، وحملت معي بعض  
السمك ، إذ لا تسمح نظم هؤلاء الرهبان لهم مطلقاً بأكل اللحوم ، فتلقونا  
بالفرح العظيم ، وأطلعونا على ديرهم ثم ما لبثنا أن رحلنا ، وقد أخبرنا سكان  
الجزيرة أن الرهبان يعيشون عيشة بالغة القداسة ، ويسمى الدير بدير  
« ستانفان » (٣١) .

وصلنا هذا اليوم إلى « مودون » (٣٢) الواقعة بين هذه الجزيرة وجزيرة  
« ساينزا » ، فأرسلنا بها لنموّن السفينة ولنمكن ربانها وركابها من إنجاز  
بعض الأعمال الخاصة بهم هناك لأنهم كانوا بناذقة والمكان تابع للبندقية ،  
ويبلغ عدد سكانها ألفي نسمة ، ويكتنفها البحر من جانبيها ، وهي حسنة  
التسوير منيعة التحصين ولكنها منبسطة الأديم ، وأبصرت بها كثيراً من  
النباتات الحافلة بمختلف أنواع الفاكهة ، وأرضها شديدة الخصب تشبه في ذلك  
أرض الأندلس ، والسكن بها طيب ، ولغة سكانها اليونانية وإن حكمتها  
البندقية . وعلى بعد ستة أميال منها مدينة « كورون » التي تقع في الخليج  
الأخر الذي تكلمت عنه وهي مدينة كبيرة وقلعة حصينة ، واليونانية هي  
لغة الحديث هنا أيضاً ، وإن شابهت مودون في أنها تحت سيادة البندقية ،  
ويملك البنادقة هذه الأملاك في شبه جزيرة المورة لأنها مراكز حيوية  
لتجارهم ، والقوم هنا أثرياء جداً لأن هذه الأماكن هي موانئ يفرغ فيها  
جميع ضروب تجارة اليونان والبحر الأسود ، فبقينا بها ستة أيام ، ثم أبحرنا

شطر « كانديا » التي كانت تسمى قديماً « بكرنيتا » حيث حكمها ذات مرة الملك « أجامنون » الذي قاد الإغريق ضد أهل تروجان .

وقد تركنا بحر الأرخيبيل على يسارنا ، وهو مليء بالجزر التي يزدحم بعضها بالسكان على حين يقفر منهم البعض الآخر ، ورأيت من بينها جزيرة « سيقيرا » المسماة عند اليونان « بستريل » ، حيث أمسك « باريس » هنا « بهيلين » وحملها إلى طروادة ، كما أبصرت كذلك صخرة قوية ناعمة الملمس شديدة الارتفاع ، يتوسطها كهف ارتفاعه مائتا قامة<sup>(٣٣)</sup> وعمقه أكثر من ذلك .

والمسافة من « مودون » إلى جزيرة « كريت » ثلاثمائة وخمسون ميلاً اجتزناها في مدى يومين وليلتين وصلنا بعدها إلى ميناء « كانديا » ، ولما كان لاتين كريت لا يعرفون سوى مدينة كانديا فإنهم يطلقون هذا الإسم على كل المملكة ، والجزيرة شديدة الخصب عامرة بالمدن الرائعة والقلاع الحصينة<sup>(٣٤)</sup> .

ولسان أهلها اليونانية ، والحكومة تابعة للبيدقية التي ترسل كل سنة دوقاً لحكمها ، وقد ثار أهل الجزيرة منذ أمد غير بعيد ضد البنادقة الذين أرسلوا قوة عادت لاحتلال المكان ، وصدر قرار بتحديد بقعة معينة من الجزيرة يمنع زراعة أى شيء فيها كما يمنع بها تكاثر الماشية ، ويستهدف هذا القرار الحد من الرخاء الذي يتمتع به أهلها لتوفر كل شيء لديهم .

ومدينة « كانديا » كبيرة جداً تمهل بالمباني الضخمة الكثيرة ، ويقال إنه يوجد على بعد ثلاثة أميال منها قصر التيه الذي شيده « ديدالس » بالإضافة إلى كثير من الآثار القديمة الأخرى ، والمدينة حسنة البناء زاخرة بالبساتين

الجميلة والمياه الوفيرة ، أما الميناء فمشهور وله حاجز صناعي رائع لصد الأمواج ، كما تكثرت بها الطواحين الهوائية ، وتطير فوق الجزيرة - في فترة معينة من السنة - أسراب كثيرة جداً من الشواهين قل أن تجد لكثرتها شارباً لها ، وقد بقينا هنا ثلاثة أيام ثم أبحرنا إلى « رودس » تاركين بحر الأرخبيل والجزائر المتعددة على يسارنا ، والمسافة من « كانديا » إلى رودس تقدر بثلاثمائة ميل ، فلما كان اليوم الثالث باغتنا الجزيرة ووجدنا هناك بعض الأغرابة والسفن التابعة للملك أراجون ، غير أننا سلحنا أنفسنا ورفعنا راياتنا الثلاثة الصغيرة التي عليها صورة بيت المقدس ، فلما شاهدنا القوم تركونا في الحال وأبحروا .

ومدينة « رودس » منبسطة الأديم ولكنها محصنة بخندق وسور ، ويوجد على أحد جوانبها مكان منفصل يقيم فيه فرسان بيت المقدس المعروفون « بالاسبثارية »<sup>(٣٥)</sup> ويسمى « كولا كيم » ، وفيه البمارستان الذين اشتقوا اسمهم منه ، وهو من أعظم بيوت العبادة التي تسمى لى رؤيتها ، والواقع أنه لا يمكن أن يبرزه بناء من حيث روعة العمارة أو الزينة أو كثرة المثونة ، ويستقبل الفرسان أى عليل يطرق بابهم ، ومن وافته منيته من نزلائه المرضى جُبتْ حُطيتته وبرئ من عقابه ، بل إن أولئك الأشخاص الذين يزورون المستشفى ينعنون بتقرارات منيئة ، ويقع هذا البمارستان على يسار الداخل إلى « الكولا كيم » ، وقد بناه دوق « أنطوان دى فلوفيان » كبير فرسان بالاسبثارية ، السكتلاني المولد .

وقد رحلنا من هناك لمشاهدة المدينة واجتازنا كثيرًا من الشوارع وبيوت الفرسان ، من بينها بعض نُزل وخانات يتناول فيها الأجانب طعامهم وتم فيها مقابلاتهم ، ولكل أمة مكانها المستقل عن الأمم الأخرى ، ويشرف على رعاية كل بيت من هذه البيوت فارس يوكل إليه أمر تأديته ما يحتاجه نازلوها

حسب ملتهم ، ويوجد عند نهاية مسكن الفرسان — وعلى اليد اليسرى — كنيسة القديس يوحنا التي يدعون إليها دائماً لأداء صلاتهم وعقد مجلسهم ، وتزخر هذه الكنيسة بكثير من الخلفات المقدسة ، ومن بينها — كما يقولون — الوعاء الذي غسل فيه المسيح يديه وجزء كبير من النقود التي بيع بها ، وكذلك بعض الشوك الذي توج به ، ومسمار من الصليب الذي رفع عليه ، وغير ذلك الشيء الكثير ، فإذا جاء الفرسان لانتخاب كبيرهم أقموا على هذه الآثار المقدسة قاطعين العهد على أنفسهم بأنهم سينهجون الحق متخذين الحيدة شعارهم في اختيار أجدد القوم بتولى هذا المنصب ؛ ويوجد أمام هذه الكنيسة البيت الذي يقيم به كبير فرسان الاسبتارية وهو مسكن عادي بسيط ، ويقوم بخدمة هذا السيد اثنا عشر فارساً يسمون « بالرفاق » يتشاورون معه ويأكلون دائماً على مائدته .

ويقوم الفرسان في كل يوم من أيام السنة بإطعام إثني عشر من الفقراء وخدمتهم بأيديهم ، لا يمنعونهم من ذلك إلا انشغالهم بالمرضى أو تغييبهم عن الفاحية .

ويوجد خان آخر لاستقبال حجاج بيت المقدس الذين ينزل كل واحد منهم الرواق الخاص بوطئه ، فيجد كل شيء حاضرًا ومجهزاً له إلا الطعام ، كما توجد كنيسة أخرى بها بعض القسوس الذين يمثل عملهم في تلاوة القداس للحجاج ، وهدفهم من هذا كله إبعادهم عن الفنادق العامة ، ويقوم الفرسان بزيارتهم ، أما من أراد استصحاب ضيف معه فيجوز له ذلك بإذن من كبير الفرسان الذي يعرف بالمرشال .

ويتوفر بجزيرة رودس الطعام والنبيد ، كما أنها تحفل بالبساتين التي خصص الجانب الأكبر منها لمائدة كبيرهم الأخ الأعظم يوزعها بين من معه من إخوانه

الإثني عشر ، ويوجد في الجزيرة أيضاً قلعة يسمونها قلعة « يوديجو » ، ويمكن أن يقال الكثير عن هذه التلة الطيبة من الفرسان ، ولكنى أتركهم الآن لأتحدث عن أشياء أخرى .

\* \* \*

رحلنا عن رودس وسمرنا « بقشتيل الروح<sup>(٣٦)</sup> » وهى جزيرة مواجهة لساحل أرمينيا ، كما أنه قلعة حصينة جداً تابعة للفرسان ، واتخذنا الطريق إلى قبرص محاذين شاطئ تركيا حيث يسكن كبار السادة الأتراك وكذلك الكرمان ، ولورد كانديلور ولورد ستاليا وسواهم من الحكام الأقوياء ، وهناك أخذونا إلى مدينة يقال إنها خربت من جراء خطيئة اللواط ، ثم أبحرنا لمدة ثلاثة أيام على طول ساحل خليج « ستاليا » حتى وصلنا إلى جزيرة قبرص مارين بمدينة إسمها « ألباف » ، غدت الآن مقفرة من السكان لفساد هوائها ورداءة مائها ، ولما لم تجر عادة حجاج بيت المقدس بالنزول فى الجزيرة فى رحلتهم الخارجية فلست بمستطيع فى هذا المكان أن أقص عليك أكثر من هذا بشأنها ولكنى سأتكلم عنها فيما بعد . وهكذا تابعنا رحلتنا إلى يافا - ميفاء بيت المقدس - والمسافة بينهما تقدر بثلاثمائة وخمسين ميلاً ، وظللنا بمحزيرين ثلاثة أيام بلياليها ، حتى إذا كان اليوم الرابع بلغنا شاطئ الأرض المقدسة ، ولكن لما كان معظم القطر شديد الانبساط فإنه لا يستطيع رؤية مدخل يافا .